رسائل جغرافية
١٩٣

دور إيلين سمبل في البحث الجغرافي

د. عيسى موسى الشاعر
أستاذ مشارك
قسم الجغرافيا - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة الإمارات العربية المتحدة - العين

محرم ١٤١٧ هـ
يونيو ١٩٩٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

دور إيلين سمبل في البحث الجغرافي

مقدمة

لم تشتهر أي من النساء الجغرافيات حتى عهد قريب بالبحث الجغرافي . بل كان الرجال في الغالب هم الذين يتولون ذلك . ولكن الآنسة إيلين تشرشل سمبل (١٨٦٣ ـ ١٩٣٢) الجغرافية الأمريكية شذت عن تلك القاعدة وتصدرت مكانة مرموقة بين الجغرافيين الأمريكيين بشكل خاص وجغرافيي العالم بشكل عام . ولقد استعرض كاتب هذه السطور العديد من المراجع العربية التي تعرضت للآنسة سمبل فوجد أن تلك المراجع لا توليها الاهتمام الكافي ولا تعطيها حقها بصفتها واحدة من أبرز نساء العصر الحديث في البحث الجغرافي . وعليه يهدف هذا البحث إلى إظهار الدور القيادي للآنسة سمبل من خلال تتبع حياتها المبكرة وتحصيلها الأكاديمي وكذلك من خلال مراحل إنتاجها العلمي التي قسمت إلى ثلاث مراحل متميزة اقترنت بكتب ثلاثة شهيرة نشرتها وهي : **التاريخ الأمريكي وأحواله الجغرافية ، تأثيرات البيئة الجغرافية ، وجغرافية إقليم البحر المتوسط** . وقد تعرضت الدراسة إلى موقع الآنسة سمبل في مدرسة الفكر الحتمي المنسوبة إلى العالم الألماني راتزل . كما ناقشت تأثير سمبل في الرعيل الأول من الجغرافيين الأمريكيين وخلصت إلى أن سمبل لم تكن أستاذة للجغرافيا فقط بل عميدة لها . هذا وقد حرصت الدراسة على تقديم عرض شامل لإنتاج سمبل العلمي دون الدخول في تفاصيل آرائها التاريخية أو الحتمية أو الإقليمية . ولقد كان من مبررات هذه الدراسة قضاء الباحث أربع سنوات في ولاية كنتكي التي تنتسب إليها سمبل ، وذلك أثناء دراساته العليا والزيارات العديدة التي تلتها ، مما مكنه من جمع المراجع والمعلومات الواردة في هذا البحث .

حياتها المبكرة :

ولدت إيلين تشرشل سمبل Ellen churchil Sample في مدينة لوزفيل Lousiville بولاية كنتكي الأمريكية في يناير ١٨٦٣م خلال أيام الحرب الأهلية[١] وكان والدها قد وصل إلى الولايات المتحدة قادماً من اسكتلندة ، واستقر باديء الأمر في مدينة بتسبرج Piettsburg بولاية بنسلفانيا ، ثم رحل إلى مدينة لويز فيل عام ١٨٥٣م ، حيث أسس شركة خاصة . وقد أثرت العائلة من هذه الشركة ثراء كبيراً مما أتاح لأفرادها فرصة العيش والتعليم برخاء . وفي لويزفيل تزوج والدها من ابنة عائلة مثقفة عريقة ترجع أصولها الأمريكية إلى عام ١٦٣٣م ، حيث رزقا خمسة أطفال كانت إيلين أصغرهم . وعندما ولدت إيلين كان عمر والدها ٥٨عاماً وعمر والدتها ٤١ عاماً . ولقد وصفت طفولة إيلين بأنها كانت هادئة بسيطة . أما والدتها فقد وصفت بشدة ذكائها . وفي ذلك يقول أحد أشقاء إيلين «إن عقل والدتي المبدع وطاقتها انعكست في إنجازات إيلين[٢] .

«ولقد شجعتها والدتها على القراءة والرحلات والتنس وركوب الخيل . وفي لويزفيل التحقت إيلين بمدرسةخاصة للإناث ، وفيها كانت متفوقة على زميلاتها . توفي والدها عندما بلغت من العمر ٢١ عاماً فتولت والدتها رعايتها والإشراف عليها .

تحصيلها العلمي بين كلية فاسار وجامعة لايبزغ :

في عام ١٨٧٨ وعندما بلغ عمر إيلين ١٥ عاماً التحقت بكلية فاسار Vassar في مدينة بفكيبسى Pouphdeepsie بولاية نيويورك ، وكانت أصغر زميلاتها . وعلى الرغم من حداثة سنها إلا أنها اجتازت امتحانات القبول بسهولة ويسر . وفي الكلية درست اللغات والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد . وهناك عرفت بقدرتها على تنظيم البيانات

(1) Charles Colby "Ellen Churchill Semple", The Annals of the Association of American Geographers, 1933, Vol. 23, PP. 229 - 240.

(2) Ibid, P. 229.

واستخلاص النتائج . وفي عام ١٨٨٢ حيث كان عمرها ١٩ عاماً فقط تخرجت من الكلية ومنحت درجة البكالوريوس في الآداب . ونظراً لتحصيلها المتميز أدرج اسمها في لوائح الشرف[١] . لقد أضافت كلية فاسار تدريباً وخبرة كبيرة إلى إيلين . ولقد عرفت تلك الكلية بشهرتها بحيث استطاعت أن تجذب طلاباً من أنحاء عديدة من الولايات المتحدة بل ومن بعض دول العالم . وهذا أفاد في توسعة أفق إيلين بتعرفها على شابات من ولايات وبلدان مختلفة .

عادت إيلين بعد تخرجها إلى مدينة لويزفيل . وعملت هناك في التعليم في مدرسة خاصة لشقيقتها عدة سنوات[٢] . وكذلك ابتدأت برنامج الدراسات العليا في فاسار على طريقة التكليفات وكتابة الأطروحة . وأكملت درجة الماجستير في الآداب عام ١٨٩١م . وقبل ذلك وفي عام ١٨٨٧ رافقت والدتها في زيارة إلى لندن بإنجلترا . وهناك قابلت طالباً أمريكياً أنهى لتوه درجة الدكتوراة من جامعة لايبزغ Leipzig في ألمانيا ، وأثنى على أستاذ في جغرافية الإنسان في تلك الجامعة هو فريدريك راتزل Friedrick Ratzel ، كما أعارها المجلد الأول من كتاب راتزل بعنوان **جغرافية الإنسان** Anthropogeographie . ولقد قرأت سمبل الكتاب عدة مرات بحرص شديد قررت بعدها الذهاب إلى ألمانيا للدراسة على يد راتزل فور إنهائها الماجستير من فاسار[٣] .

لم يكن قبول طالبة عمرها ٢٨ عاماً في جامعة ألمانيا أمراً سهلاً في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي . وبعد تخرجها من فاسار سافرت إيلين إلى ألمانيا وسكنت مع عائلة ألمانية لتحسين محادثتها باللغة الألمانية . ثم التحقت بالفصل الذي درّس راتزل فيه موضوع جغرافية الإنسان في خريف ١٨٩١ دون أن تتمكن من التسجيل رسمياً . وكانت البنت الوحيدة من بين خمسمائة طالب في ذلك الفصل ، وعليه خصص لها

(1) W. Bladen and P. Karan (eds.), The Evolution of Geographic Thought in America: A Kentucky Root, dubuque: Kendall/ Hunt Publishing co., 1983, P. 29.

(2) "Two Remarkable Lousivillians, the Semple Sisters", Lousiville Times, June 2, 1960,

(3) "Miss Semple achievement," Courier Journal (Lousiville), Nov.7, 1912.

المقعد الأمامي الذي سعدت به لتكون أقرب ما يمكن إلى أستاذها[١] . ومكثت في لايبزغ عاماً ونصفاً حيث ... افة إلى الجغرافيا مواضيع أخرى مثل الاقتصاد والإحصاء[٢] . ثم عادت إلى أمريكا ... قت . وفي عام ١٨٩٥م عادت إيلين إلى لايبزغ ثانية للدراسة . ولكن هذه المرة سجلت ... ة بالجامعة بصفة رسمية . وقد اعتبرت إيلين دراستها مع راتزل نقطة تحول في حياتها وقد أثنت عليه بمناسبة وفاته عام ١٩٠٤م فكتبت «كان إنجازه العظيم يتجلى في جغرافية الإنسان ، وهو أول من رفع هذا الموضوع إلى م... انة العلم . . وسيبقى اسم راتزل دائماً مرافقاً لعلم الجغرافية الإنسانية»[٣] . وفي ذلك ... أحد للابها شالز كولبي Charles Colby والذي عمل فيما بعد أستاذاً في جامعة ش... اجو ... ه لو كان راتزل ... والذي رفع جغرافية الإنسان إلى مرتبة العلم فإن سمبل قد أض... ت ص... حاتها با... [٤] .

مراحل إنتاجها العلمي :

الحقيقة أن سمبل لم تبدع في ... جغرافية الإنسان فقط بل أبدعت في العديد من حقول المعرفة الجغرافية . و... تجلى ذلك في نشرها ثلاثة كتب ونحو أربعين بحثاً . ويمكن تقسيم مراحل إنتاجها العلمي إلى ثلاث مراحل تنتهي كل مرحلة بنشر واحد من كتبها الثلاثة وهي : **التاريخ الأمريكي وأحواله الجغرافية ، تأثيرات البيئة الجغرافية ، جغرافية إقليم البحر المتوسط** .

مرحلة التاريخ الأمريكي ومؤثراته الجغرافية :

بعد عودة سمبل من ألمانيا بدأت ... البحث الجغرافي الجاد في بيئتها الأمريكية على وجه الخصوص . وقد نشرت مجموعة ... الأبحاث بين عامي ١٨٩٧ و ١٩٠١م

---

(1) W. Bladen and P. Karan (eds.) op. cit., P.30.

(2) Charles Colby, op. cit., P. 231.

(3) Ibid., P. 232.

(4) Ibid.

توجتها بمجلد هام عام ١٩٠٣ . أما الأبحاث فقد تركز نشرها في الولايات المتحدة في دورية Journal School Geog. ودورية Bull. American Geogr. Soc. وفي إنجلترا في دورية Geographical Journal ففي الدورية الأولى نشرت الأبحاث التالية :

- «أثر الحاجز الأبلاشي على تاريخ المستعمرات» ١٨٩٧[١] .
- «بعض الأسباب الجغرافية المحددة لمواقع المدن» (١٨٩٧ [٢] .
- «هنود جنوب شرقي ألاسكا في علاقتهم ببيئتهم» ١٨٩٨[٣] .
- «دراسة مقارنة للمحيطين الأطلسي والهادي» ١٨٩٩ [٤] .
- «تأثيرات جغرافية في تطوير مدينة سانت لويس» ١٨٩٩ [٥] .
- «التركيز على جغرافية الإنسان في المدارس» ١٨٩٩[٦] .
- «مدينة لويزفيل : دراسة في الجغرافيا الاقتصادية» ١٩٠٠[٧] .
- «دراسة في الجغرافيا البشرية : سكان الجبال في علاقتهم مع تربتهم» ١٩٠٠[٨] .

أما في الدورية الأمريكية الثانية فقد نشرت بحثاً بعنوان «تطور مدن الهانز في علاقتهم ببيئتهم الجغرافية» ١٨٩٩ ، [٩] في حين نشرت في دورية GeogrJournal.

---

(1) Ellen Semple, "The Influence of the Appalacion Barrier Upon colonial History, "Journal of School Geography, 1897, Vol. 1 PP, 33 - 41.

(2) ----------, "Some Geographic Causes Determining The Location of cities", Journal of School Geography 1897, Vol. 1., P.225 - 231.

(3) ----------, "Indians of Southeastern alaska in relation To Their Geographical Environment, "Journal of School Geography, 1898, Vol. 2, PP. 206 - 215.

(4) ---------- , "AComparative Study of the Atlantic and Pacific Oceans, Journal of School Geography, 1899, Vol. 3, PP. 121 - 129.

(5) ---------- , "Geographic Influences in the Development of St. Louis "Journal of School Geography, 1899, Vol,3, PP. 290 - 300.

(6) ----------, "the Emphasis Upon anthropogeography in the Schools" Journal of School Geography, 1899, Vol. 3, PP. 366 - 374.

(7) ---------- , "Lousivlle, a Study in Economic Geography", Joranal of School Geography, 1900, Vol. 4, PP. 361 - 370.

(8) ---------- , " a Study in Human Geography: Mountain People in relation to Their Soil," Journal of Schol Geography. 1900, Vol. 4, PP. 417 - 424.

(9) ---------- , "Development of the Hanse Towns in Relation to Their Geographical Environmont", The Bulletin of American geographical Society 1899, Vol. 21, PP. 236 - 255.

الإنجليزية بحثاً بعنوان : «أنجلو سكسون جبال كنتكي : دراسة في جغرافية الإنسان» ١٩٠١[١] . ولقد كان للورقة الأخيرة الخاصة بأنجلو سكسون جبال كنتكي شهرة كبيرة حيث اعتبرت ابتكاراً مهماً . فقد أوضحت سمبل فيها أن الإنسان يمكن دراسته في الحقل . وقد جاءت في الوقت الذي كان فيه وليام موريس ديفيز Wolliam Moris Davisورفاقه يحاولون تأسيس فكرة الدراسات الحقلية في الجغرافيا . ولذلك فقد وصف كولبي الدراسة بأنها أكثر التقارير المنشورة حتى تلك اللحظة تأثيراً ، وأنه كان لها أثر كبير في جعل سمبل جغرافية أمريكية بارزة حيث تميزت بالعمل الحقلي في منطقة صعبة الوصول هي شرقي كنتكي ، وأنها ربما جذبت اهتمام الطلاب الأمريكان إلى حقل الجغرافيا أكثر من أية دراسة أخرى على الإطلاق[٢] .

لقد أدركت سمبل وهي ابنة شابة أثر سطح كنتكي في بداية الإعمار ، فلقد جاء المستوطنون من فرجينيا وعبر هضبة كنتكي الوعرة إلى حوض العشب الأزرق Blue Grass Basin ومن ثم إلى ميسوري وتكساس . وقد توقف عدد قليل من هؤلاء المستوطنين في هضبة كمبرلاند شرقي كنتكي ذات الأودية السحيقة والأراضي الزراعية المحدودة . كما أن أنهار الهضبة لم تكن صالحة للملاحة . ولقد أدى ذلك كله إلى عزلة المنطقة عن العالم ، مما دفع سمبل للقيام بدراسة ميدانية لمعرفة أثر الانعزال على الرواد الأوائل الذين أثبتوا كفاءتهم في مناطق أمريكية أخرى . ولقد اتجهت سمبل برفقة إحدى زميلاتها في رحلة استكشافية إلى شرقي كنتكي ، ووجدت أن أحفاد الرواد الأوائل الأنجلو ساكسون في تلك المنطقة المنعزلة كانوا يعيشون حياة متأخرة لم يطرأ عليها تغيير منذ قرن . وحتى لغتهم الإنجليزية قد كانت قريبة من لغة شكسبير[٣] . وقد نشر تقريرها في لندن عام ١٩٠١ وأعيد نشره في الولايات المتحدة في عام ١٩١٠[٤] .

---

(1)Ellen Semple, "The anglo - Saxons of Kentucky Mountains, A Study in anthropo-geography", Geographical Journal, 1901, Vol. 17, PP. 588 - 623.

(2) Charles Colby, op. cit., P. 232.

(3) W. Bladen and P. Karan (eds.), op. cit., P. 31.

(4) Ellen Semple, "The Anglo - Saxons of the Kentucky Mountains", the Bulletin of American Geogrphic al Society, 1910. Vol. 42, PP. 561 - 594.

لقد بلغت مكانة سمبل درجة رفيعة عام ١٩٠٣ بنشرها كتاب **التاريخي الأمريكي وأحواله الجغرافية** American History and its Geogr. Conditions ، الذي احتوى على ٤٦٦ صفحة و ١٦ خريطة . ولقد تم اعتماد هذا الكتاب بصفته الكتاب المقرر في الجغرافيا التاريخية للولايات المتحدة في العديد من الجامعات الأمريكية[١] . والحقيقة أن سمبل في مجلدها لعام ١٩٠٣ قد أكدت رأي أستاذها الخاص بالعلاقة بين الأحداث التاريخية والأوضاع التي تتخذ منها مسرحاً لها[٢] . لقد جعل ذلك الكتاب من سمبل إحدى مؤسسي الجغرافيا الأمريكية على الرغم من عدم حصولها على شهادة دراسات عليا في الجغرافيا ولم تقم بتدريس أي مقرر جغرافي في كلية أو جامعة حتى ذلك التاريخ . ويعتبر كتاب **التاريخ الأمريكي وأحواله الجغرافية** نهاية مرحلة هامة من مراحل الإنتاج العلمي الغزير لهذه المرأة في حقل الجغرافيا .

مرحلة «تأثير البيئة الجغرافية» :

لقد أصبحت الآنسة سمبل بعد ظهور كتابها الأول علماً مهماً من أعلام الفكر الجغرافي . وقد تميزت الفترة من ١٩٠٤ ـ ١٩١١ بإنتاج يفوق إنتاج المرحلة التي سبقتها . ففي تلك الفترة نشرت سمبل ١٢ مقالة توجتها بمجلد كبير بلغت صفحاته ٦٨٣ صفحة واحتوى على ٢١ خريطة . أما المقالات فهي :

ـ «صفقة لويزيانا» ١٩٠٤[٣] .

ـ «تأثير البيئة الجغرافية على الحوض الأدنى لسانت لورنس» ١٩٠٤[٤] .

---

(1) American History ind it's Geographic conditions, New York, Houghton Mifflin Co., 1903.

(2) W. Bladen and P. Karan (eds.) , oP. cit., P.32.

مما يلفت النظر أن أحد طلاب ديفيز وهو بريجهام A. Brigham قد كتب كتاباً مشابهاً لكتاب سمبل في العنوان والمحتوى دون أن يكونا التقيا من قبل ، انظر : a. Brigham, Geographic Influences in American History, Boston, Ginn & co. 1903.

(3) Ellen Semple, "The Lousiana Purchase", Journal of Geography, 1904, Vol. 3. P. 241.

(4) ----------, "The Influence of Geographic Environment on The Lower St. Lawrence". The Bulletin of Amerecan Geographical Society, 1904, Vol, 36, PP. 449 - 466.

- «كلمة إجلال إلى فريدريك راتزل» بالاشتراك مع السيدة جنتل، ١٩٠٤[١] .
- «تأثيرات جغرافية في تطور سانت لويس» ١٩٠٤[٢] .
- «التركيز على جغرافية الإنسان في المدارس» ١٩٠٤[٣] .
- «قرى الشاطىء الشمالي لسنت لورنس الأدنى» ١٩٠٤[٤] .
- «شعوب الجبال في علاقتهم بتربتها : دراسة في الجغرافيا البشرية» ١٩٠٥[٥] .
- «الحدود الجغرافية» ١٩٠٧[٦] .
- «شعوب السواحل» ١٩٠٨[٧] .
- «الموقع الجغرافي بصفته عاملاً في التاريخ» ١٩٠٨[٨] .
- «المحيطات والبحار المغلقة : دراسة في جغرافية الإنسان» ١٩٠٨[٩] .
- «تشغيل العوامل الجغرافية في التاريخ» ١٩٠٩[١٠] .

ولقد كان مجال تركيز المقالات الآنفة الذكر هو الحوض الأدنى لسنت لورنس الذي اتسمت الأبحاث فيه بطبيعتها الميدانية . بالإضافة إلى ذلك يلاحظ وجود بعض الدراسات المنهجية حول العلاقة بين الجغرافيا والتاريخ، والتي تلت اشتراك سمبل عام ١٩٠٧ في ندوة خاصة بالجمعية التاريخية الأمريكية عنوانها «الجغرافيا والتاريخ» .

(1) Ellen Semple, "Tribute to Friedrich Ratzel," Co - Auther With Mrs. M. ?Gentle, Bull. American Geogr. Soc, 1904 Vol. 36, P. 553.

(2) ---------- , "Geogrhphic Influences in Development of St. Louis," Jounal of Geograhpy, 1904, Vol. 3, PP. 290 - 300.

(3) ----------, "Emphasis Upon Anthropogeography in Schools." Journal of Geography, 1904, Vol. 3, PP, 366 - 374.

(4) ----------, "North - Shore Villages of the Lower St. Lawrence," in Ratzel, F. Zu Fridrich Ratzels gedach tris, 1904, PP. 349 - 360.

(5) ----------, "Mountain Peoples in relation to Their Soil: AStudy in Human Geography, "Geographical Teacher, 1905 Vol. 111, PP. 125 - 131.

(6) "Geographical Boundaries, Bull. Amer. Geogr. Soc., 1907,Vol. 39., pp 385 - 397.

(7) ---------- , "Coast Peoples," Geogr. Journal, 1908, vol. 131, PP. 72 - 90.

(8) ---------- , "Geographical Location as a Factor in History, "Bull. Amer . geogr. Soc., 1908, Vol. 40. PP. 65 - 81.

(9) ---------- , "Oceans and Enclosed Seas: A Study in Anthropogeography. "Bull. Amer. Geogr. Soc., 1908, Vol. 40, PP. 193 - 209.

(10) ----------, "The Operation of Geographic Factors in History" "Bull. Amer. Geogr. Soc., 1908, Vol. 41, PP. 422 - 439.

يعتبر ظهور كتاب **تأثيرات البيئة الجغرافية** Influences of Geographic Environment[1] عام ١٩١١ حدثاً مهماً جداً في حياة سمبل . ولقد تم إنجاز هذا العمل بناء على طلب من الأستاذ راتزل قبل وفاته . لقد أراد راتزل من تلميذته أن تترجم أو تعيد صياغة كتابه **جغرافية الإنسان** Anthropo - Geographie باللغة الإنجليزية . ولكن نظراً لأن أفكار سمبل كانت أبعد من أفكار أستاذها ولأنها كانت تعارضه في بعض مبادئه ولا سيما مبدأ التناظر الذي أجراه بين الدولة والكائنات الحية والذي عرف باسم النظرية العضوية للدولة . فقد قررت سمبل كتابة مجلد بالإنجليزية يتفق مع الخطوط العامة لكتاب راتزل ولكن بتنظيم جديد . والحقيقة أن سمبل لم تتخل عن إعجابها بأستاذها بصفته مفكر مبدع ، ولكنه في بعض رأيها كان كمن ينظر إلى الأشياء من قمة جبل ممعناً النظر إلى الأفق البعيد مما جعله يتغاضى عن أشياء قريبة ربما كانت مهمة . وهذا ما حاولت علاجه عن طريق توضيح ما هو غامض ورفض ما ينقصه الدليل[٢] . وهكذا ، فإن كتاب سمبل على الرغم من أنه يحمل في طياته نفحات راتزل إلا أنه في الحقيقة كتاب جديد شامل ذو قيمة كبرى لطلاب الدراسات الجغرافية بشكل خاص والدراسات الإنسانية بشكل عام[٣] .

مرحلة «جغرافية اقليم البحر المتوسط» :

تعتبر هذه المرحلة أكثر أهمية من المرحلتين السابقتين نظراً لكثرة البحوث التي تم نشرها فيها ، ونظراً لطول مدتها . ذلك أن هذه الفترة امتدت من عام ١٩١١ وحتى عام ١٩٣١ ، نشرت سمبل خلالها ١٨ بحثاً «كان ثلاثة منها حول اليابان وواحد حول بلاد ما بين النهرين وواحد حول تركيا . أما بقية الأبحاث والتي يبلغ عددها ١٣ بحثاً فقد تركزت حول منطقة البحر المتوسط . وفي نهاية تلك الفترة قدمت سمبل مجلدها الضخم الخاص بإقليم البحر المتوسط والذي يعتبر خاتمة إنتاجها العلمي .

(1) Ellen Semple , "Influences of Geographic Environment, New York, Henry Holt and campany. 1911.

(2) W. Bladen and P. Karan, op - cit., P. 33.

(3) Charles colbey, pp - cit., P. 234.

لقد توجهت بصحبة اثنتين من زميلاتها في رحلة حول العالم فور نشرها كتاب **تأثيرات البيئة الجغرافية** في يونيو من عام ١٩١١م . وقد كانت اليابان محطتها الأولى ومكثت فيها ثلاثة أشهر أجرت فيها سمبل دراسات حقلية بتسهيلات لا مثيل لها ، وذلك بمساعدة صديقتين يابانيتين كانتا زميلتيها في كلية فاسار التي تخرجت منها . أما الأولى فكانت زوجة كبير الضباط البحريين اليابانيين في حين كانت الثانية أرملة قائد الجيش الياباني الأسبق(١) . وقد أسفرت دراساتها في اليابان عن مقالتين رائدتين ، ركزت الأولى على الزراعة اليابانية ، وتميزت بقدرة هائلة على وصف منظر الأرض في اليابان . وفيها تعرضت للتباين في الزراعة اليابانية وفق الاختلافات في الارتفاع(٢) . أما الدراسة الثانية فعالجت أساليب الزراعة اليابانية(٣) . بالإضافة إلى تلك المقالتين نشرت سمبل عام١٩١٣ تقريراً عن الزراعة اليابانية»(٤) .

بعد مغادرة اليابان سافرت سمبل إلى كوريا ومنشوريا ثم إلى الصين ، حيث زارت بكين وشنجهاي . ثم زارت الفلبين وجاوة وسيلان وأجزاء من شبه القارة الهندية بما فيها بومباي وبيشاور وممر خيبر . ثم توجهت بعد ذلك إلى منطقة طالما تمنت زيارتها وكتابة مجلد عنها ألا وهي منطقة البحر المتوسط . أما محطتها الأولى في المنطقة فكانت اليونان التي زارتها من أقصى جنوبيها وحتى حدودها مع تركيا . وأثناء طريقها إلى أثينا سلكت سمبل وزميلتاها الطريق الذي استخدمه الملك احشورس الأول في الغزو الفارسي لليونان عام ٤٨٠ ق .م(٥) .

---

(1) Ibid.

(2) Ellen Semple, "Iufluences of Geographic conditions Upon Japanese Agriculture", geographical Journal, 1912, vol. 40, PP. 589 - 607.

وانظر كذلك

Marvin mikesell, "Geography as the study of Environment: An Assessment of some Old and New Commitments, "in Persectives on Environment, Ian Manners and Marvin Mikesell, eds. Washington, D.C. AAG, 1974, P. 3.

(3) Ellen Semple, "Japanese Colonial Methods," "Bull. Amer. Geogr. Soc., 1913, Vol. 45, PP. 225 - 275.

(4) ----------, Japanese Agriculture Abstract, "Journal of Geography. 1913, Vol. 11. PP. 304 - 305.

(5) W. Bladen. and. P. Karan, op. cit., P. 40.

وبعد زيارة مطولة إلى دول حوض البحر المتوسط ، بما فيها يوغسلافيا ، توجهت الفتيات الثلاث إلى الألب فسويسرا وفرنسا وألمانيا والأراضي المنخفضة والسويد والنرويج . وهناك تلقت سمبل دعوة لإعطاء محاضرات في الفصل الصيفي لعام ١٩١٢ في جامعة أكسفورد . بعد ذلك حاضرت أمام الجمعية الجغرافية الملكية في لندن ، وعلى أثر ذلك بدأت الجمعية في قبول النساء في عضويتها . وفي نوفمبر وديسمبر من العام ذاته حاضرت أمام الجمعية الأسكتلندية الملكية[١] .

عادت سمبل إلى لويزفيل عام ١٩١٢ ، وهناك سارعت إلى مراجعة ملاحظاتها التي دونتها في رحلتها التي استغرقت ١٨ شهراً تمهيداً لكتابة مجموعة من البحوث نشرتها في السنين اللاحقة . وفي فصل الربيع من عام ١٩١٤ قامت سمبل بتدريس مقرر مبادىء جغرافية الإنسان في جامعة شيكاجو . كما حاضرت في كلية ويلسلي Wellesley في العام الدراسي ١٩١٤/ ١٩١٥ وفي جامعة كولورادو في صيف عام ١٩١٦ . ولقد كان عام ١٩١٥ عاماً مهماً بالنسبة لسمبل حيث نشرت فيه بحثها الأول عن منطقة البحر المتوسط والذي كان في الوقت نفسه البحث الأول الذي تنشره في حوليات جمعية الجغرافيين الأمريكيين . وفيه أولت اهتماماً خاصاً إلى الدور الذي لعبته ممرات الجبال الفاصلة بين أقطار البحر المتوسط وبقية الأقطار الأوروبية في مجرى التاريخ[٢] وفي عام ١٩١٦ نشرت بحثاً يتعلق بسواحل القرصان حول شواطئ البحر المتوسط تلك السواحل التي يجب أن تكون في رأيها قريبة من الطرق التجارية الرئيسية . ولقد كان ذلك البحث هو البحث الأول الذي تنشره سمبل في مجلة Geographical Review[٣] . وفي السنين التالية تركزت معظم بحوث سمبل حول

---

(1) Charles Colby, op. cit., P. 234.

(2) Ellen Semple, "Barrier Boundary of the Mediterranean Basin and its Northern Breaches as Factors in History". Annals of the Association of Amerciation Geographers, 1915, Vol. 5, PP. 27 - 59.

(3) ---------- , Pirate Coasts of the Mediterranean Sea, "Geographical review, 1916, Vol. 2, PP. 134 - 151.

منطقة البحر المتوسط مما جعلها تقوم بزيارة العديد من المكتبات الأوروبية لجمع البيانات والمعلومات اللازمة .

لقد انقطع إنتاج سمبل خلال الحرب العالمية الأولى . وفي خريف ١٩١٧ أعطت عدة محاضرات حول جغرافية الجبهة الإيطالية لضباط في لويزفيل . وفي الفترة من ديسمبر ١٩١٧ إلى ديسمبر ١٩١٨ اشتركت في لجنة من العلماء دعا إلى تشكيلها الرئيس الأمريكي ولسن لتقديم معلومات دقيقة ومفصلة حول الأقطار الأوروبية لوكالة الاستخبارات الخاصة ببعثة السلام الأمريكية . وقد استخدم مبنى الجمعية الجغرافية الأمريكية القريب من جامعة كولومبيا في نيويورك لذلك الهدف . وفي تلك الفترة وفي خلال صيف ١٩١٨ أعطت سمبل محاضرات في جامعة كولومبيا . وفي عام ١٩١٩ استأنفت بحوثها عن منطقة البحر المتوسط ونشرت بحثين عالج الأول منهما التأثيرات المناخية والجغرافية على توزيع الغابات وتجارة الأخشاب في الأزمنة القديمة ،[١] في حين عالج الثاني طرق القوافل القديمة في شمال بلاد ما بين النهرين[٢] . وفي عام ١٩٢١ نشرت سمبل بحثاً عن العوامل الجغرافية في التجارة القديمة للحبوب في البحر المتوسط[٣] . وفي العام نفسه انتخبت سمبل رئيسة للجمعية الجغرافية الأمريكية . وفي أثناء خطابها في الجمعية قرأت بحثاً حول أثر الأحوال الجغرافية على تربية الحيوانات الأليفة في إقليم البحر المتوسط والذي تم نشره في عام ١٩٢٢[٤] . وفي عام ١٩٢٢ أيضاً نشرت بحثاً عن الجغرافية الإقليمية لتركيا[٥] .

---

(1) Ellen Semple, Climatic and Geographic Influences on Ancient Mediterranean Forests and the Lumber Trade, "Annals of the Assoc. of amer, Geogr,. 1919. Vol. 9. PP. 13 - 40.

(2) ----------, "Ancient Peidmont Routes of Narthern Mesopotamia," Geogr. rev., 19, Vol. 8, PP. 153 - 179.

(3) ----------, "Geographic Factors in the Ancient Mediterranean Grain Trade," Annals of the Assoc. of amer. Geogr . 1921. Vol. 11. PP. 47 - 74.

(4) ----------, "The Influence of Geographic conditions Upon ancient Mediterranean stock - Raising, "Annals of the Assoc, of amer. Geogr. 1922. vol. 12, P. 3 - 38.

(5) ----------, The Regional geography of Turkey: a Reveiw of Bane's Work," Geogr. rev. 1922, Vol. 11. PP. 338 - 350.

وتجدر الإشارة إلى أن سمبل قد عادت للتدريس في شيكاجو في الأعوام ١٩٢٠ و ١٩٢٢ و١٩٢٣ و ١٩٢٤ .

لقد تفرغت الآنسة سمبل لتدريس الجغرافيا في كلية الدراسات العليا في جامعة كلارك منذ عام ١٩٢١ وحتى عام ١٩٢٩م . ولقد اعتادت التدريس في الفصل الأول والتفرغ للبحث في الفصل الثاني من كل عام . أما المواضيع التي كانت تقوم بتدريسها فكان أهمها جغرافية الإنسان ، وجغرافية اقليم البحر المتوسط ، وجغرافية أوروبا وجغرافية جنوب شرق آسيا ، وتاريخ علم الجغرافيا . وقد شهد لها طلابها بقدرتها على شحذ هممهم ودفع طموحاتهم إلى الأمام[١] . وفي جامعة كلارك تابعت كتاباتها حول اقليم البحر المتوسط ولكن اتخذت منحى جديداً يتلخص بالتركيز على جوانب دينية وجمالية مع عدم إهمال الجوانب الاقتصادية . ففي عام ١٩٢٥ كتبت بحثاً عالج التأثيرات المناخية في بعض الديانات القديمة في منطقة البحر المتوسط[٢] . وفي عام ١٩٢٧ ركز بحثها على وصف المعابد والمقدسات الدينية على شواطىء البحر المتوسط[٣] . ثم عادت للكتابة في الزراعة واستصلاح الأراضي . فنشرت عام ١٩٢٨ بحثاً بعنوان الزراعة القديمة في إقليم البحر المتوسط[٤] . كما نشرت عام ١٩٢٩ بحثاً ناقشت فيه قضايا الري واستصلاح الأراضي في المنطقة[٥] . وفي عام ١٩٢٩ نفسه نشرت بحثاً تعرضت فيه إلى حدائق السعادة اشتمل على معلومات قيمة عن حياة سكان حوض البحر المتوسط في الماضي[٦] . ومما يلفت النظر أن سمبل قد نشرت بحثاً

(1) Charles Colby. op. cit. P. 236.

(2) Ellen Semple, " Climatic Infuences in Some Ancient Mediterranean religions" scottish geographcal Magazine. 1925, Vol. 41, PP. 214 - 221.

(3) ----------, "Templed Promontories of the Ancient Meditrranean," Geographical Review, 1927. vol. 17. PP. 353 - 386.

(4) ---------- , "Ancient Mediterranean Agriculture," agricultura History, 1928. Vol. 2. PP. 61 - 98.

(5) ----------, Irrigation and Reciamation in the Ancient , Mediterranean Region , Annals of the Assoc . of Amer Geogr ., 1929 , Vol . 19 , PP . 111 - 148.

(6) ----------, Ancient Mediterranean Pleasure Gardens , Geographical Review , 1929 , Vol. 19 ,PP. 420 - 443.

باللغة العربية بعنوان «الزراعة في بلدان البحر المتوسط قديماً» نشرته في مجلة الكلية التي تصدرها الجامعة الأمريكية في بيروت. وقد ورد ذلك فقط في النعي الذي كتبه أحد طلاب سمبل وهو شارلز كولبي عام ١٩٣٣ بعد وفاة سمبل بعامين(١). وهذا أمر مهم يدعو للتساؤل عما إذا كانت الآنسة سمبل تجيد الكتابة في اللغة العربية، حيث لم يرد ما يدل على ذلك في أي مرجع عربي أو أجنبي تعرض لمساهمات سمبل. أما آخر البحوث التي كتبتها سمبل فكان في المدن الدينية في منطقة البحر المتوسط(٢).

يمكن القول أن أبحاث الآنسة سمبل الخاصة باقليم البحر المتوسط كانت عبارة عن شرح جغرافي لحضارات متتابعة في تلك البيئة. وكانت تعمد سمبل فيها إلى تفسير الظاهرات من وجهة نظر التتابع التاريخي. والحقيقة أن الآنسة سمبل كانت تخطط لكتابة مجلدها الضخم عن اقليم البحر المتوسط طيلة العقد الأخير من حياتها. فقامت بتجميع بحوثها المتفرقة في مجلد يعتبر مثالاً لدراسة اقليمية جادة عن تلك المنطقة من العالم. ولكن صحة سمبل أخذت تتدهور شيئاً فشيئاً على أثر تعرضها لأزمة قلبية في أواخر خريف ١٩٢٩ مما اضطرها للنوم في المستشفى عدة مرات. وفي سبتمبر من عام ١٩٣٠ انتقلت للعيش في منزل بالقرب من حرم جامعة كلارك حيث ساعدها ذلك على متابعة كتابة مجلد اقليم البحر المتوسط الذي احتوى على ٧٣٧ صفحة و ١٤ خريطة وتمكنت من نشره عام ١٩٣١(٣). كما ساعدها وجودها بالقرب من حرم الجامعة على مراجعة كتابها التاريخ الأمريكي وأحواله الجغرافية(٤) وذلك بالتعاون مع

(1) ايلين سمبل، «الزراعة في بلدان البحر المتوسط قديماً»، «مجلة الجامعة الأمريكية»، بيروت، ١٩٣٠، ١٦، ص ص ١٠٧ ـ ١١٢. انظر:

Charles Colby. op. cit., P. 240.

الذي أورده في منشورات سمبل بالعنوان التالي:

Alzira Ah Fi Buldan Al - Bahr A - Mutawassit Quadiman (Agriculture in the Ancient Lands of The Mediterranean countries.)

(2) Ellen Semple, "Promontory Towns of the Mediterranean," Home Geographic Monthly, 1931, Vol. 1, PP. 30 - 35.

(3) ----------, "geography of the Mediterranean Region, Henry, Holt and company, 1931.

(4) ----------, "American History and its Geographic conditions, revised edition, New York, Houghton Mifflin company, 1933.

أحد طلابها كليرنس جونز Clarence. Jones الذي نشره عام ١٩٣٣ بصورته المنقحة التي زادت ٧٥ صفحة و ١٥ خريطة عن طبعة ١٩٠٣م .

وبإتمام سمبل هذين العملين تنتهي المرحلة الثالثة والأخيرة من مراحل إنتاجها العلمي حيث عادت صحتها إلى التدهور بعودة الأزمة القلبية إليها . وفي أواخر عام ١٩٣١ توجهت بناء على نصيحة أطبائها إلى مدن أكثر دفئاً في الجنوب الأمريكي مثل آشفيل Asheville في كارولينا الشمالية ووست بالم بيش Palm Beach West في فلوريدا والتي توفيت فيها في مايو ١٩٣٢م . وبذلك تكون الآنسة سمبل قد عاشت ٦٩ عاماً قضت نصفها في الإنتاج الجغرافي الغزير وعملت فيها أستاذة في أشهر الجامعات الأمريكية مما كان له الأثر في نشر فلسفتها الجغرافية ليس فقط داخل الولايات المتحدة بل خارجها أيضاً . وعلى الرغم من تفوق سمبل في الجغرافيا التاريخية والإقليمية إلا أن أفكارها حول أثر البيئة الطبيعية في السلوك البشري هي التي أضفت عليها شخصيتها المتميزة .

الحتمية البيئية بين راتزل وسمبل :

عندما تذكر سمبل يرد إلى الأذهان فوراً ذكر أستاذها راتزل ، وعندما يذكر راتزل يقترن ذكره بمدرسة «الحتمية البيئية» التي تفترض أن البيئة الطبيعية مجسدة في المناخ والموقع والتضاريس تحكم مجرى التاريخ ومستوى التقدم الحضاري والاقتصادي . فما علاقة راتزل بهذه المدرسة؟ وما هو موقف سمبل منها؟

لقد كان الجغرافيون في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر يسعون لوضع أسس علمية لحقلهم . ولقد تأثروا بغيرهم من العلماء وبالأفكار الشائعة حول طبيعة العلم . ومن بين الباحثين الذين كان تأثيرهم في الجغرافيين كبيراً يمكن أن نذكر دارون Darwin صاحب كتاب أصل الأنواع وليل Lyell صاحب كتاب مبادىء الجيولوجيا اللذين جعلا جو الفكر يخضع لسلطان العلوم الطبيعية . وبالتالي أصبح كل علم لا يتشبث بأهداب العلوم الطبيعية لا يطلق عليها علماً ، وأصبحت الظاهرات الطبيعية لسطح

الأرض هي مركز الاهتمام عند الجغرافيين . وقد أخذ بهذا الاتجاه الطبيعي العديد من العلماء الألمان والأمريكان . وقد غالى هؤلاء الجغرافيون إلى درجة استبعاد كل الظاهرات البشرية من الدراسة الجغرافية .

وبالمقابل ظهر اتجاه آخر في نهاية القرن التاسع عشر دعا إلى الاهتمام بالعنصر البشري في الدراسات الجغرافية . وقد اشتهر بهذا الاتجاه العالم الألماني فريد ريك راتزل Friedrick Ratzel (1844 - 1904) الذي حاول رد الاعتبار إلى الجغرافيا البشرية بحيث لا تكون أقل أهمية من الجغرافيا الطبيعية وذلك في مجلده الشهير جغرافية الإنسان Anthropogeographie . ويرى بعض الباحثين أن تلاميذ راتزل قد بالغوا في آرائه مما أدى إلى اعتبار راتزل مؤسس الحتمية البيئية التي تفقد الإنسان قيمته في الدراسة الجغرافية[١] .

والحقيقة أن الفلسفة البيئية بتركيزها على العامل الحاسم للبيئة في السلوك البشري هي أقدم من راتزل ولها جذور عميقة في الفكر الغربي وربما تعود إلى أبقراط وأرسطو الأغريقيين . كما ظهرت في كتابات بودين Bodinومنتيسكيو Montesquieu وأضحت بصورتها المتطرفة في كتابات مؤرخين اجتماعيين أمثال كزن Cousin وبكل Buckle ، وبتأثرها بأراء لامارك Lamarck وداروين في الربط بين البيئة والتطور فقد أصبح للفلسفة البيئية وزن كبير في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عندما مارست الجغرافيا دورها الأكاديمي في الجامعات[٢] .

ويرى بازن Bassin أن تأثر راتزل بداروين لم يكن مباشراً بل كان عبر موريتس واجنر Moritz Wagner الذي شرح آراء داروين عام ١٨٦٨م ، وأوضح أنه كان يعوزها البعد المكاني[٣] . بالإضافة إلى ذلك فإنه في أواخر القرن التاسع عشر ظهرت أفكار سبنسر

---

(١) حسن طه النجم «دراسة في الفكر الجغرافي» عالم الفكر ، المجلد ٢ ، العدد ، ١٩٧١ ، ص ص ١٠٥ ـ ١٤٠ .

(2) G. Dunbar (ed.), Modern geography, an encyclopedic Survey, New York, Garland Publishing Inc. PP. 50 - 51.

(3) M. Bassin, "Friedrick Ratzel 1844 - 1904 in T. Freeman (eds.). Geographers: Bibliographical Studies, London, Mansell, 1987, Vol. 2. , PP. 123 - 132.

Spencer المستلهمة من لامارك وداروين والخاصة بالنظرية العضوية للمجتمع والتي يعتبر الفكر الحتمي من أسسها (١) . وهكذا فإن أفكار لامارك وداروين جنباً إلى جنب مع أفكار سبنسر قد أرست الأساس الذي استند إليه جغرافيون مثل راتزل في تطوير طرق جديدة لفهم العلاقة بين الإنسان والبيئة . وفي الولايات المتحدة الأمريكية كان وليم موريس ديفيز من بين الجغرافيين الأمريكيين البارزين الذين أوضحوا أن محتوى الجغرافيا يقع ضمن العلاقة بين ضوابط البيئة الطبيعية وردود الفعل البشرية(٢) . إلا أن أراء ديفيز بقيت نظرية في مجملها . وقد كان لتميذة راتزل ـ الآنسة سمبل ـ الدور الأكبر في توضيح الحتمية البيئية في كتابها **تأثيرات البيئة الجغرافية** ونقل أفكار أستاذها إلى الولايات المتحدة الأمريكية .

ومما لا شك فيه فقد كان تأثر سمبل براتزل كبيراً ، يدل على ذلك ما أوردته في مقدمة كتابها الآنف الذكر تخليداً لأستاذها حيث كتبت العبارة التالية : «في كتابي هذا هنالك شخص واحد يستحق الشكر ، هو السيد العظيم الذي كان أستاذي وصديقي خلال حياته ووحيي بعد وفاته (٣) . وقد اعتبرت سمبل كتابها تمثيلاً لآراء راتزل وكرسته لإيضاح تأثير البيئة الطبيعية في الإنسان . والكتاب يبدأ مفترضاً وجود هذه المؤثرات مما يسلبه بعض ما يجب أن يكون له من حياد علمي(٤) . أما الدليل الواضح على حتمية سمبل فهو ما استهلت به كتابها **تأثيرات البيئة الجغرافية** حيث تقول : «الإنسان هو نتاج سطح الأرض . وليس معنى هذا أنه ابن الأرض ، غبار من غبارها ، بل إن الأرض أرضعته ، وغذته ، وحددت له الواجبات ، ووجهت أفكاره ، وواجهته بالصعوبات التي قوت جسمه وشحذت ذكاءه ، أعطته مشاكل الملاحة أو الري ، وفي الوقت نفسه همست له بحلها(٥)» وترى سمبل أن البيئة الطبيعية التي تقدم الأساس

(1) R. Peet, "The Social Origins of Environmental Detertminism," annals of the Association of American Geographers, 1985, Vol. 75, PP. 309 - 333.

(2) W. M. Davis. "An Inductive Study of the content of Geography," Bulletin of the Amer. Geogr, Sciety, 1906, Vol. 38, PP. 67 - 84.

(3) R. Whitbeck, "Ellen Churchill Semple," The Geographical Review, 1932, Vol. 22, PP. 500 - 501.

(4) شاكر خصباك ، تطور الفكر الجغرافي ، الكويت ، مكتبة الفلاح ، ١٩٨٦ ، ص ٢٠٨ .

(5) Ellen Semple Enfluences of Geographic environment, op. cit,. P.1

الطبيعي للتاريخ تتصف بالثبات وأنها الأساس للنشاط البشري ، بالمقارنة مع الإنسان المتقلب والمطواع . وإن المزاج البشري والحضارة والدين والممارسات الاقتصادية والحياة الاجتماعية يمكن أن تعود في أصلها إلى تأثيرات بيئية . وهكذا فإن سمبل تقارن بين شعوب شمالي أوروبا الذين تغلب عليهم الحيوية والجديةوشعوب جنوبي البحر المتوسط في المنطقة شبه المدارية الذين يتصفون بالإهمال والعاطفيةوقصر النظر[١] .

وعلى الرغم من أهمية انتشار فلسفة سمبل في أمريكا الشمالية ، فقد كان ثمة أفكار مختلفة لها قيمتها في الفترة نفسها . وفي هذا الخصوص يمكن ذكر جورج مارش G. Marsh وناثينال شالر .N. Shaler أما مارش فقد نشر كتاباً قيماً بعنوان الإنسان والطبيعة Man and Nature وذلك بعد خمس سنوات من نشر داروين لكتابه **أصل الأنواع** . وقد أكد مارش على الإنسان بصفته عامل إيجابي في تغيير البيئة التي يعيش فيها وأنه لا يقف موقف المتفرج منها . أما شالر الذي تتلمذ على يد عالم الطبيعة السويسري لويس أجازيز L. Aggasiz . وهو يعمل في الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد حرص على تطبيق أفكار مارش عمليا[٢] .

وبينما سادت الحتمية البيئية على الفكر الجغرافي في الثلاثين سنة الأولى وتابع الدفاع عنها إيلسورث هنتجتون في الولايات المتحدة وجريفث تايلور في أستراليا ، فإن الحوار داخل القارة الأوروبية قد أخذ منحى مختلفاً تلخص في تجنب تفسيرات سمبل لآراء راتزل المتطرفة ، وظهرت أفكار إمكانية للباحث الفرنسي لوسيان فيفر . ولقد بنى فيفر أفكاره على آراء جغرافيين كانت تربطه معهم رابطة قوية أمثال فيدال دي لابلاش وجين برون اللذين أقرا بتأثير الظواهر الطبيعية في النشاط البشري ولكن ليس إلى الحد الذي يمكن اعتبارها مقررة لذلك النشاط . وهذا ما دعا برون إلى صياغة عبارته الشهيرة التي نصت على أنه لا توجد حتميات بل إمكانيات في كل مكان .

والإنسان بصفته سيد الإمكانيات هو المقرر لاستعمالها[٣]» .

---

(1) Ibid,. P. 620.
(2) T. Unwin, The Place of Geography, Essex, Longman scientific and Techics;, 1992, P. 94.
(3) Ibid.

ومهما يكن من أمر فقد بقيت الآنسة سمبل بأفكارها التي ورثتها عن راتزل وبأبحاثها الجغرافية الأصيلة علماً من أعلام الفكر الجغرافي الحديث . ويشهد على تلك المكانة المتميزة الرعيل الأول من الجغرافيين الأمريكيين الذين ما انفكوا يتذكرون أستاذتهم حتى بعد نصف قرن من وفاتها .

تأثير سمبل في الرعيل الأول من الجغرافيين الأمريكيين :

يقصد بالرعيل الأول من الجغرافيين الأمريكيين ، ذلك الجيل الذي اشتهر في فترة الثلاثين عاماً الأولى من القرن العشرين . ولقد كان تأثير سمبل في هذا الجيل تأثيراً كبيراً . ويتضح ذلك بشكل جلي عند استعراض المؤسسات العلمية التي عملت فيها سمبل بشكل متفرغ أو جزئي ، وكذلك عند استعراض المكانة العلمية لتلامذتها الذين درسوا على يديها والذين عملوا على نشر أفكارها في مختلف الجامعات والأوساط الأمريكية .

فمنذ أن عادت سمبل من ألمانيا عام ١٨٩٧ كثفت جهودها للبحث الجغرافي ، واستهلت ذلك بدراستها لأول مستوطنة أنجلو سكسونية شرقي ولاية كنتكي الأمريكية . ولقد اشتهر ذلك البحث وجعل من سمبل واحدة من الجغرافيين الأمريكيين الذين نقرأ كتاباتهم برغبة وجدية . ومما زاد في أهمية تلك الدراسة أنها كانت دراسة حقلية رائدة ، وهو اتجاه نادر في الجغرافيا البشرية في ذلك الوقت . ثم كان ظهور كتاب **التاريخ الأمريكي وأحواله الجغرافية** عام ١٩٠٣ الذي رفع من مكانة سمبل وجعلها سيدة نظرية العلاقات البيئية في أمريكا . ولقد استمر هذا الكتاب يقرر على طلاب أقسام الجغرافيا ودارسي التاريخ الأمريكي فترة طويلة . ثم عزز من مكانة سمبل اختيار وليم موريس ديفيز عام ١٩٠٤ لها لتكون إحدى الأعضاء المؤسسين لجمعية الجغرافيين الأمريكيين نظراً لتزعمها الجانب البشري من الأبحاث الجغرافية .

وفي صيف ١٩٠٦ انضمت سمبل إلى هيئة التدريس في قسم الجغرافيا بجامعة شيكاجو . ذلك القسم الذي تأسس عام ١٩٠٣ ليكون أول قسم جغرافيا في الولايات

المتحدة . لقد عملت سمبل في جامعة شيكاجو ولفترات متقطعة في التدريس بين عام ١٩٠٦ و ١٩٢٤م . كما عملت في التدريس في جامعة كلارك بمدينة ورسستر Worcester بولاية ماساشوسيتس وبشكل متفرغ في الفترة منذ ١٩٢١ وحتى قبيل وفاتها . وأثناء عملها في جامعتي شيكاجو وكلارك درس على يد سمبل مجموعة من التلاميذ أصبحوا فيما بعد من أشهر الجغرافيين الأمريكيين ومن بينهم :

- جورج ميلر George Miller محرر مجلة .Journal of Geography .
- فيرنرفينش Vernor Finch رئيس قسم الجغرافيا في جامعة وسكنسن .
- كارل ساور Carl Sauer أستاذ الجغرافيا في جامعة ميتشجان ورئيس قسم الجغرافيا في جامعة كاليفورنيا - بيركلي .
- ويلنجتون جونز Willington Jones أستاذ الجغرافيا في جامعة شيكاجو .
- ديرونت وتلسي Derwent Whittlesey أستاذ الجغرافيا في جامعة هارفرد .
- شارلز كولبي Charles Colby أستاذ الجغرافيا في جامعة شيكاجو .
- ستيفن فيشر Stephen Visher أستاذ الجغرافيا في جامعة انديانا .
- روبرت بلات Robert Platt أستاذ ورئيس قسم الجغرافيا في جامعة شيكاجو .
- كليرنس جونز Clarence Jones أستاذ الجغرافيا في جامعة كلارك ثم جامعة نوروسترن .
- إدوين فوسكيو Edwin Foscue أستاذ ورئيس قسم الجغرافيا في جامعة ساوث ميثودست في دالاس - تكساس .
- لانجدن وايت Langden White أستاذة الجغرافيا في جامعة ستانفورد .
- شويندمان J . Shwendeman مؤسس ورئيس قسم الجغرافيا في جامعة كنتكي .

إن غالبية طلاب سمبل في جامعتي شيكاجو وكلارك هم متوفون حالياً . ولكن بليدن Bladen ورفقاه أثناء كتابتهم عن سمبل بصفتها أستاذ للجغرافيا ، قاموا بالاتصال

ببعض طلابها في أواخر السبعينات لمعرفة رأيهم الشخصي فيها . ووفقاً لتلامذتها أوضح بليدن ورفاقه أن سمبل كانت واحدة من أكثر الأساتذة تميزاً في حجرة الدراسة وأنها فتحت عيون طلابها على أثر الجغرافيا في جميع الأحداث التاريخية . كما أكد بعضهم وبعد خمسين عاماً من دراستهم على يد سمبل بأنها لا تنسى . وذكروا بأن كتابها **التاريخ الأمريكي وأحواله الجغرافية** ساعد على جعل الجغرافيا شيئاً آخر عدا عن كونها «ماذا وأين» . ليس ذلك فقط بل إن بعضهم قد وصف سمبل بأنها عميدة الجغرافيين الأمريكيين(١) .

أما كتاب سمبل الثاني بعنوان «**تأثيرات البيئة الجغرافية**» الذي نشر عام ١٩١١ فيعتبر متميزاً بوجه خاص لسعة انتشاره في جميع أنحاء العالم الناطقة بالانجليزية . ولقد قام جون رايت John Right الأستاذ في جامعة شيكاجو في عام ١٩٦١ بدراسة حول أثر كتاب التأثيرات على تطور الأفكار الجغرافية . وقد بعث رايت استبانة إلى نحو ٥٠ جغرافياً في الولايات المتحدة الأمريكية في ذلك العام . وقد استنتج رايت أن ذلك الكتاب قد أثار درجة كبيرة من الحوار والنقاش بين معظم طلاب الجغرافيا في الدول الناطقة باللغة الإنجليزية وأنه ساهم في تطوير المفاهيم الجغرافية في العقود الثلاثة التي تلت نشره(٢) .

وتجدر الإشارة إلى أن كتاب **تأثيرات البيئة الجغرافية** ربما كان وراء اعتبار الآنسة سمبل أبرز دعاة الحتمية من قبل العديد من الجغرافيين . فها هو محمد الفرا يورد بأن سمبل قد تعصبت لآراء أستاذها راتزل وغالت فيها كثيراً حتى وصلت إلى حد التطرف(٣) . وها هو محمد الشرنوبي يذكر أن سمبل لم تكن وحدها التي تصورت أن

---

(1) w. Bladen and P. Karan, op. cit,. PP. 48 - 51.

انظر كذلك :

c. langden white, "Ellen Churchill Semple: the Dean of American Geographers, "Vassar Quarterly, Vol. 74, Fall 1977, P. 50.

(2) John right, "Miss Semple's Influence of Geographic Environment: Notes Toward a Bibliography", Geographical Review, Vol, 52, 1962 , PP. 364 - 361.

(٣) محمد الفرا ، «علم الجغرافيا ، دراسة تحليلية نقدية في المفاهيم والمدارس والاتجاهات الحديثة في البحث الجغرافي» ، وحدة البحث والترجمة «تصدر عن قسم الجغرافيا بجامعة الكويت والجمعية الجغرافية الكويتية) ، نشرة ٢٢ ، أكتوبر ١٩٨٠ ، ص ٤٨ .

الجغرافيا البشرية ما هي إلا دراسة للتأثيرات البيئية ، ولكنها بلغت في ذلك الذروة[1] ولقد أكد فؤاد الصقار ومحمد الفيل على أن سمبل تعتبر من أخلص تلاميذ مدرسة راتزل ، كما تعتبر من غلاة الحتميين[2] .

وكذلك أكد حسن النجم أن أبرز طلاب راتزال الذين ذهبوا إلى مذهب التطرف في أرائه هي الجغرافية الأمريكية إيلين سمبل[3] . أما فريمان فيذكر أن سمبل هي الممثل الرئيسي للحتمية البيئية[4] . ولكن وعلى الرغم من ذلك أشار بعض طلابها ومنهم كلارنس جونز Clarence Jones إلى أن سمبل لم تكن حتمية إلى الدرجة التي وصفت بها . فعلى الرغم من أنها ذكرت بأن الظروف الطبيعية كان لها دور في أفعال الإنسان في مناطق عديدة . إلا أنها كانت مطلعة على أثر العوامل الاقتصادية والحضارية في مناطق عديدة أيضاً[5] . ومهما يكن من آراء عديدة حول هذا الكتاب فمما لا شك فيه أن سمبل بتوثيقها المتنوع والدقيق للمعلومات التي وردت فيه جعلته واحداً من أهم الكتب المنهجية في حقل الجغرافيا بحيث كان تأثيره كبيراً ليس فقط في الرعيل الأول من الجغرافيين بل كذلك في العديد من الجغرافيين خارج المجال الأمريكي .

وفي العقد الخير من حياتها ، تفرغت سمبل للتدريس في جامعة كلارك وفي الوقت نفسه تفرغت لكتابة مجلدها حول اقليم البحر المتوسط . وفي تلك الفترة منحت العديد من الميداليات الذهبية تقديراً لمساهماتها وقياداتها المتميزة في الجغرافيا ، كما ألقت العديد من المحاضرات في كلية فاسار وفي قسم الجيولوجيا والجغرافيا في جامعة ميتشجان وفي جامعة كنتكي وفي كليات وجامعات أخرى . كما قامت في الفصل الثاني من عام ١٩٢٥م بالتدريس في جامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجلوس[6] .

---

(١) محمد الشرنوبي ، البحث الجغرافي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ ص ٤٠ .

(٢) فؤاد الصقار ومحمد الفيل ، أصول الجغرافية البشرية ، وكالة المطبوعات ، ١٩٨٠ ، ص ٤١ .

(٣) حسن النجم ، مرجع سبق ذكره .

(٤) تي . فريمان «تعريب شاكر خصباك» ، قرن من التطور الجغرافي ، منشورات جامعة بغداد ، مطبعة العاني ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ١١٠ .

(5) W. Bladen and P. Karan, op. cit,. P. 38.

(6) charles Colby, op. cit., P. 236.

وأثناء لقاءاتها العلمية المتعددة تلك كانت تستحوذ على اهتمام وإعجاب كافة مستمعيها . أما كتابها «**جغرافية اقليم البحر المتوسط**» والذي نشر عام ١٩٣١ فكان نموذجاً رائعاً لدراسة جغرافية . ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن سمبل في ذلك الكتاب لم تكن «حتمية بيئية» ، بل اعتقدت أن أهمية عناصر البيئة الطبيعية للإنسان كان نتيجة لرغباته وأهوائه وقدراته الفنية ، وأن هذه المفاهيم يجب أخذها في الاعتبار لتحقيق أهداف الدراسة الجغرافية .

وفي أواخر حياتها تلقت سمبل العديد من الرسائل من زملائها وطلابها يشيدون بهذا الكتاب الذي يمثل خاتمة إنتاجها العلمي . ومن أمثلة ذلك رسالة بعثها تلميذها ديرونت وتلسي Derwent Whittlesey الأستاذ في جامعة هارفرد يقول فيها إن كتابها جغرافية اقليم البحر المتوسط يعتبر بالنسبة له «أروع زهرة في التفكير الجغرافي»[١] . ولقد كان أثر هذا الكتاب لدى أوساط الجغرافية الأمريكية كبيراً حتى عهد قريب ، ويدل ذلك ما قام به مؤخراً أحد الباحثين وهو برادن Braden من عرض وتمحيص له . وفي دراسته ركز برادن عن إيلين سمبل بوصفها جغرافية إقليمية ، وذلك في ضوء النظرية البنينية Structuration theory الحديثة التي تؤكد على دنامية الاقليم . صحيح أن سمبل أبرزت الدور السلبي للإنسان في بعض الأماكن ، إلا أنها في مواضع عديدة أظهرت الكيفية التي تغلب الإنسان فيها على الطبيعة . وقد استدلت في ذلك بالعديد من الأمثلة مثل تحويل مجاري الأنهار واختيار السلالات الحيوانية وتقنيات الإنشاء[٢] .

وهكذا حققت الآنسة إيلين سمبل مكانة قيادية في حقل الجغرافيا لم تحققها أية سيدة جغرافية على الإطلاق . فبأبحاثها العديدة وكتبها المتميزة ومحاضراتها التي استمع لها تلاميذ أصبحوا من كبار الجغرافيين الأمريكيين ، يمكن القول إن دور تلك المرأة القيادي في البحث الجغرافي لا منازع له .

---

(١) رسالة من ديرونت وتلسي في ديسمبر ١٩٣١ محفوظة في المجموعة الخاصة بسمبل ، جامعة كنتكي ، لكسنجتن في الولايات المتحدة الأمريكية .

(2) K. Braden, "Region, Semple and Structuration, "the Geographical Review, Vol. 82, july 1992 (3), PP. 237 - 243.